

معالم المنهج الصوفي والتربية الروحية عند عبد الحفيظ بن خنقي الشريف

بوخرصة طيب

إشراف د. حسيني بلقاسم

جامعة بن خلدون تيارت

ملخص:

إنَّ منهج التَّصَوُّف واسع الانتشار في العالم العربي منذ القديم، له مدونات التي تفصل فيه، وواحد منها مدونة التَّصَوُّف الجزائري لمؤلفه "عبد الحفيظ بن خنقي الشريف"، فقد أُلِف هذا الكتاب في مرحلة مهمّة من تاريخ الجزائر حيث كانت الظروف السَّياسية والإجتماعية فيها تتطلَّب العودة إلى التَّربية الروحية والإسلامية الصوفية من أجل الحفاظ على التَّراث الروحي الذي حاول كلٌّ من الوجوديين العثماني والفرنسي القضاء عليه، وقد تبَيَّن أنَّ مباحث هذا الكتاب كلّها تصبُّ في عمق التَّربية والتَّوجيه والتَّعريف بالعبادة الصَّحيحة التي تُعرِّف السَّالك برَّه، وكان منهج الشَّيخ الخنقي زادًا مضافًا إلى تراث الطَّريقة الرَّحمانية وإلى التَّصَوُّف العملي.

الكلمات المفتاحية: التصوف - التربية الإسلامية - التراث الروحي - التصوف العملي عند الشيخ عبد الحفيظ بن خنقي الشريف.

The Sufi Approach and the Spiritual Education of Sheikh Abdul Hafez Bin Khonki Al Sharif

Abstract:

The method of Sufism has been spreading rapidly in the Arab world since ancient times. He has blogs checked in it, The Algerian Sufism of the author Abdul Hafiz bin Khinqi Sharif is one of them. He wrote this book in an important time in the history of Algeria in political and social conditions that need spiritual and Islamic education wick Ottoman and French colonization tried to distroy it. The study of this book came to the depth of education and guidance and the definition of true worship, which guide us to the way of the God.

Shaykh al-Khonqi's approach is a wealth added to the way of Rahmanism and to practical Sufism.

key words:

Sufism - Islamic Education - Spiritual Heritage - Practical Sufism of Sheikh Abdul Hafez Bin Khanki Al Sharif.

تمهيد:

إنَّ التَّصَوُّف رسالة هادفة ترمي إلى بناء الإنسان والترفع به المادِّيات، وهذا الغرض يتطلَّب الرُّجوع إلى طبيعة الرِّسالة الصوفية وخصائصها وإلى دور التَّواصل والحوار بين المتصوِّفة وسالكي الطَّريق، وللتَّواصل في المنهج الصوفي خصائص تجعله ناجحًا، فمنها ما يرتبط بالرِّسالة بحدِّ ذاتها، من حيث إقناعها وحججها ووقوفها على أمراض النَّفس وطرق علاجها وفق ما تستمدّه هذه الرِّسالة من القرآن الكريم والسنة النبوية الشَّريفة، ومما تنشده من غرس للقيم والأخلاق، واعتمادها أسلوب التَّربية والتَّوجيه في تقديم ذلك كله، وإذا ما اجتمعت هذه البنى في الرِّسالة الصوفية فإنها تنعقد من دأبرها الضيِّقة لتخرج إلى فضاء الرِّسالة الهادفة. ومثل هذا الطَّرح رأينا فيه مقاربة لما قدمه الشَّيخ "عبد الحفيظ بن محمد بن أحمد الخنقي الشريف" أحد أعمدة التصوف الجزائري في فترة التي كان يحتاج فيها الإنسان إلى التوعية، والدين إلى الحماية، والهوية إلى إعادة الاعتبار.

1- الإطار التاريخي والثقافي للشَّيخ "عبد الحفيظ بن محمد بن أحمد الخنقي الشريف":

كانت الفترة التي عاش فيها الصَّوفي "عبد الحفيظ بن خنقي الشريف" حافلة بالأحداث التاريخية، فالجزائر كانت تحت الهيمنة العثمانية إذ شهدت تدهور كبير من الأوضاع الإجتماعية والفكرية؛ بسبب انتشار الجهل والفوضى، وكانت الطَّرق الصوفية هي المنصبة لمقاومة الإستعمار الفرنسي وقائدة لحركة الإصلاح الإجتماعي والسَّياسي، ومثل هذه النهضة أشهر الطَّرق التي عُرفت في ذلك الوقت "ولو أردنا أن نقرأ المقاومة الجزائرية بين 1840 إلى 1848 فراءة سياسية عصرية لوجدناها قد سارت تحت قيادة أحزاب ثلاثة وهي: حزب القادرية، حزب الدِّرقاوية، وحزب الرَّحمانية، وكلُّها أحزاب ظهرت في الرِّيف لا في المدن، وكلُّها أحزاب تجاوزت في أعمالها الدِّين إلى السَّياسة"⁽¹⁾، وقد عملت هذه الحركات الصوفية على القضاء على الجهل الذي انتشر في ذلك العهد وذلك بالتوعية الدِّينية "لقد أعطى ذلك التَّجاوب بين الصوفية والسَّيطرة العثمانية نتاجا ثقافيا مشوبا في أغلبه بالتَّصَوُّف والتَّفكير الباطني المعتمد على الجاهدة وتصفية النَّفس بالترك والزَّهد والتَّخلِّي، وقلَّما نجد نتاجا ثقافيا يعود إلى هذه

الفترة قد نجا من "حَيِّ التَّصَوُّف" ذلك أَنَّ أغلب الشيوخ المتصدين للإفتاء والتدريس كانوا يجمعون بين علمي الظاهر والباطن، كما أَنَّ المؤسسة التعليمية المفضلة كانت غالبا هي "الزَّوَاية" وكانت المواد المدرسة دينية متشعبة بروح صوفية⁽²⁾، واستمرت فرنسا من بعد الدولة العثمانية في نشر الجهل ومحاربة أهل العلم والزوايا التي كانت تؤدي دور الحفاظ على الدين الإسلامي، وقد كانت الطريقة الصوفية الرحمانية من أكثر الطرق انتشارا وشعبية في الجزائر بفضل شيوخها الذين عملوا على نشر التصوف السني.

انتشرت الطريقة الرحمانية في معظم مناطق الجزائر مثل الشمال والجنوب والشرق الجزائري بشكل لافت، وتنسب هذه الطريقة إلى مؤسسها الشيخ "محمد بن عبد الرحمن القشوطي الحسن الأزهري" الذي جاء بها من المشرق حيث كان يدرس، ومن أبرز الزوايا الرحمانية التي ظلت تقوم برسالتها على أكمل وجه لفضل شيوخها الأجلاء الذين نذكر منهم "أحمد بن الطيب الرحوني" وهو صاحب الرجز المعروف في الفقه، والذي ظل مصدرا مهما من مصادر القضاء ومراجعته في منطقة جرجرة، وزاوية الحامة في العاصمة التي يوجد فيها ضريح الشيخ أحمد بن عبد الرحمن طيب الله ثراه. وزاوية الشيخ الحداد والزوايا العثمانية بطولقة التي ظلت مركز إشعاع ولا تزال إلى يومنا هذا، وزاوية الشيخ "عبد الحفيظ الحنقي المجاهد الثائر في خنقة سيدي ناجي في ضواحي بسكرة"⁽³⁾ وقد اتخذ هذا الشيخ منها في التربية الروحية الصوفية اتصحت معالمه في كتابه "المنهج الفائق والدستور الفائق".

2- نسب "الحفيظ بن خنقي الشريف" ومناسبة تأليف الكتاب:

هو "عبد الحفيظ بن محمد بن أحمد الواخلي الهجرسي الإدريسي الحسني" الجزائري الخلقي، من كبار أساتيد الطريقة الرحمانية. ولد بخنقة سيدي ناجي، وعمل على نشر الطريقة الرحمانية بالخنقة، وأصبح مقدما لها في الناحية، شارك بالرغم من تقدمه في السن في ثورة الزعاطشة 1849، نجا من القتل ففر إلى زاوية نفطة بالجنوب التونسي وهناك توفي سنة 1850م، وللشيخ "عبد الحفيظ الحنقي" أولاد وحفدة استقروا في زاوية "خيران" قرب خنشلة وتونس، وكانوا على علاقة بزاوية نفطة، منهم "الأزهري الحفناوي"⁽⁴⁾، وقد اعتمد الشيخ "عبد الحفيظ بن خنقي الشريف" على نشر وترسيخ الطريقة الرحمانية كما ورثها عن الشيوخ السابقين، وقد عرّف شروطها وأسسها في قصيدة مسمّاة بـ "زهر الطريقة الخلوتية":

يَاسَاتِلًا عَن أَخْوَالِ الطَّرِيقَةِ وَمُورِدًا مِنْهَا أَضَلَّ الْحَقِيقَةِ
طَرِيقَةً هِيَ أَعْلَى الْمَرَاقِ وَأَهْلَهَا لَيْسَ فِيهِمُ الشَّقَاقِ
يَاسْعَدُ مَنْ دَخَلَهَا وَاجْتَهَدَا فِي لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَا
سَالِكَهَا مُبَشِّرًا نَدِيرًا لِنَفْسِهِ وَلِلْآثَامِ خَيْرًا⁽⁵⁾

وقد سنّ في هذه القصيدة معالم الطريق المبنية على التقوى واحترام مقامات الإحسان ونفي الشرك وما شابهه من الأخلاق التي لا تتصل بالسالك، وإضافة إلى قصيدة "الترهة" له نظم آخر مسمى "بفضل الطريقة الخلوتية الرحمانية" وفيها يتعرض لفضائل الطريقة وما يترتب عليها من معارف وخبرات في الدنيا والآخرة:

طَرِيقَتُنَا مَشْهُورٌ فِي الْأَزْمَنَةِ وَالْأُفُورِ
لَهَا سَبْعَةُ أَجْرٍ فِي اللُّوحِ وَالْقَلَمِ
يَا مُرِيدَ إِذَا تَعَرَّفَ مِنْهُمْ قَدَمَ تَشَوُّفِ
بَادِرْ وَاعِزْ يَا عَلِيلَ لَا تُشْفَى مِنَ الْغِيلِ⁽⁶⁾

وكانت الأسباب المتقدمة- التعريف بالطريقة الرحمانية وبيان فضلها- أحد أهم الدوافع التي كانت وراء تأليف الكتاب، إذ رمى من وراء هذا العمل استمرار مكانة هذه الطريقة والحفاظ على مبادئها، خاصة وأن الكثير من المتقولين يدعون زوال البركة والهبة بموت الكثير من شيوخ ومقدي هذه الطريقة. وقد ورد في قوله ما يسند حجتة "فأردت أن أجمع لهم كلاما من علوم شيخنا الرباني لقمع كل معاند للطريقة ومعنت حاسد وجاحد، فإن بعض المعترضين يقولون لإخوان الطريقة أن السلوك انقطع مع الشيخ أي الشيخ "ابن عزّوز" رضي الله عنه وفنت علم القوم وعباراتهم وإشاراتهم، وأظن أن هذا القائل علمه قاصر بالشيخ حيث قال أن الطريقة انقطعت معه وذكره الانقطاع هنا صفة مذمومة ولو انقطع الشيخ حقيقة لانقطعت الطريقة وأهلها أي السلوك وأهله ولكنه الشيخ المري لم ينقطع بل هو حيّ في قبره وسلوكه باق في حس الملك وفي معنى الملكوت لم ينفد بل هو موجود بالحسي عند أهل التربية حق وخبر وصدق"⁽⁷⁾، فالشيوخ وإن كان لهم الفضل في منح سر الطريقة للمريدين إلا أن هذا لا يعني زوال الطريقة بموتهم، فهي باقية من بعدهم وحيّة في نفوس من يأخذونها من موردها الأساس وهو العلم الحق.

3- منهج التصوف:

1.3- أسلوب الترويح والترهيب في تربية المريد:

إنَّ المريد هو انعكاس لمبادئ طريقته وتربيته شيخه، لذلك كان القائمون على منهج التَّصَوُّف حرصين كلَّ الحرص على سلوك مريديهم، وفي منهج الشيخ "الخنقي الشَّريف" المستمدَّ من الطَّريقة الرَّحائِمِيَّة نجد قواعد خاصَّة لتربية المريد مرجعها الكتاب والسُّنة وما يملِكه الشَّيخ. وهي لا تخرج عن إطار التَّخَلِّي عن الدُّنيا والتَّمسَّك بالآخرة، وورد في جملة هذه الوصايا "أيُّها المريد إن أردت سعادة الأبد فاعتم من دنياك ثلاثاً مطلقاً لذينا ومشرباً عذبا من غير ماء، واللبس خرقه من غير ثوب، تعش عيش السَّعداء. أيُّها المريد إن صحَّ قصدك بمراد مطلوبك فاعتم له خمسة، قصدا وإخلاصا وزهدا وفراصة وعدم اختيار النَّفس في الإرادة تحيا حياة الشَّهداء. أيُّها المحبوب المطلوب خاطبت موجودا وفارقت مفقودا معدوما، فاحذر من تناجي في مناجاتك واقبل عليه بكلِّيتك"⁽⁸⁾ ولا يختلف اثنان على صعوبة الطَّريق وكثرة الفتن الموجودة فيه، فلا ينجو منها إلا من أتى الله بقلب سليم لذلك كان على السَّالك أن يربِّي في نفسه حبَّ الزَّهد والقيام بالعبادات مع إخلاص النِّيَّة لأنَّ الفكر إذا كان خاليا من هموم الدُّنيا وترفعها، يصفو باطن المريد وينتقل من عبدة الظَّاهر إلى تركية الباطن، وبالتالي فإنَّ العمل يتجاوز العمل بالحقيقة إلى العمل بالشَّريعة، كما يتوجَّب عليه أن يتحلَّى بأهمِّ الصِّفات التي جاء بها الإسلام مثل حفظ اللسان من الكلام في مالا ينفع، وتجنُّب الظُّلم، والسَّعي إلى الخير ما استطاع إليه سبيلا.

2.3- المشيخة وشروطها:

إذا كان المريد هو ثمرة التَّربية الصَّوفيَّة فإنَّ القائم على هذه التَّربية هو الآخر يخضع لمجموع من الشُّروط والأخلاق بها تستقيم هذه التَّربية، وفي شروطها يقول الشيخ "الخنقي" "إنَّ المشيخة تنقسم إلى ثلاثة أقسام، القسم الأوَّل لم يسأل عن حطام الدُّنيا ولم يقبل، وهذا مقام صعب يعجز عنه الأنام والوصول إليه غريب، وصاحب هذا المقام إن عدم في حقِّه السُّؤال والقبول جاز في حقِّه العطاء للسُّائل المحتاج.. والقسم الثَّاني يسأل عن حال الدُّنيا ويقبل، وهذا المقام ميسر لصاحبه ومُحَلَّت عليه النَّفوس لأنَّ فيه من الظَّاهر نوعا من الطَّبيعة البشريَّة، القسم الثَّالث: يقبل العطاء من غير سؤال وهذا القسم أظنه من طرقنا الخلوتيَّة بل تحقيقا لأنَّ وجدته أنفس القسمين المذكورين وأبهر وأعلى مرتبة"⁽⁹⁾ فقد فضَّل الشيخ "الخنقي" صنف المشايخ الذين يغلب عليهم صفة الزَّهد والتَّواضع والترفُّع عن عطايا الدُّنيا، وتتوفر فيهم علوُّ الهمة وامتلاكهم العلم النَّافع والصَّحيح الذي يبني به العقول ويعالج به النَّفوس لأنَّ هذا الصِّفات تنتقل منهم إلى المريدين. وليس غريبا أن نجد هذه هي صفات المشايخ الأجلَّة الذين كانوا أجدر بتربية المريدين والوصول بهم إلى التَّصَوُّف الإسلامي الصَّحيح.

3.3- علاقة التَّربية ببلوغ المقامات:

المقامات هي المنازل الروحية التي يمر بها السَّالك إلى الله، فيقف فيها فترة من الزَّمن مجاهدا في إطارها حتَّى يهيئ الله سبحانه وتعالى له سلوك الطَّريق إلى المنزل الثَّاني، لكي يتدرَّج في السمو الروحي من شريف إلى أشرف ومن سام إلى أسمى، وذلك مثلا كنزل "التَّوبة" الذي يهيئ إلى منزل "الورع" ومنزل "الورع" يهيئ إلى منزل "الزَّهد" وهذا حتَّى يصل الإنسان إلى منزل الرِّضى"⁽¹⁰⁾ والمقامات تجعل المريد يرتقي ويحقق السمو من عالم الحسِّ إلى عالم الغيب، وهي عند الشيخ "عبد الحفيظ الخنقي" لا تحصل إلا بالتَّربية السَّالِكة القويمين كإدلال على ذلك قوله "اعلم وفَّقك الله أنَّ السَّالك هو المجتهد في العبادات بأنواع المجاهدات تارة مع نفسه، وتارة مع ربه إلى أن يقضي الله أمرا كان مفعولا، فالسَّالك إلى الله له حضرات عديدة يستمدُّ من كلِّ حضرة هو في داخلها إلى حضرة أعلى منها، يعني ابتداء أمره بالعبادات والتَّهَيُّؤ بحسن معاملة الباطن يحصل له الفكر في باطنه والاعتبار"⁽¹¹⁾ وإذا كانت المقامات عند المتصوِّفة تتمثَّل عموما في مقام الإيمان والإحسان، فإنَّ من شأن التَّربية الروحية ونبد الصِّفات الدِّمِية أن تحقِّق الوصول إلى هذه المقامات "يشاهد مقام الإيمان حالا ومقام الإحسان عبادة، وتصير عبادته إسلاما وإيمانا بنور الأساء والصِّفات وهو عين اليقين وعين مقام الإحسان بنور تجلِّيات الذات وهو حقُّ اليقين"⁽¹²⁾ وقد ورد في قصيدته المسماة "الحفيظة في تربية المريدين للطَّريقة الخلوتيَّة والقاصدين" ما يرشد المريد إلى بلوغ المقامات خاصة مقام الإحسان، ويقول في طريقة الوصول إليه:

تَبَلَّغْ مَقَامَ الْإِحْسَانِ	إِذَا أَرَدْتَ يَا إِنْسَانُ
تُعِينُ الْمُرِيدِيَا	عَلَيْكَ بِذِي الْأَرْكَانِ
لِمَنْ أَرَادَا الْمَدَدَ	خَمْسَةَ عَشَرَ عَدَدَ
عَنْ طَرِيقِ الشَّيْخِيَا	يَسْتَعْمِلُهُمُ السَّيِّدُ
فَقِي الشُّكَّ بِالْيَقِينِ	أَوَّلُهَا يَا مَسْكِينِ
وَاصْرِفْهُ لِمَوْلَايَا	لَا تَجْعَلْ لَكَ هَمِينَ
اتَّعَلَّمْ وَكُنْ أَدِيبَ ⁽¹³⁾	ثَالِثُهَا يَا لَيْبِ

4.3- مقام الذِّكر وآدابه:

الذكر مقام رفيع في مقامات التربية، وقد حثَّ الله تعالى عليه بصيغة فعل الأمر في أكثر من موضع في القرآن الكريم، كقوله تعالى ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعِشِيِّ وَالْإِبْكَازِ﴾⁽¹⁴⁾ وقوله تعالى أيضا ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾⁽¹⁵⁾ ويرد هذا المصطلح للدلالة على وجود استذكار نعم الله أو أخبار الرسل " والذكر بكسر الدال وتشديدها لغة يشتمل معنيين، إمَّا الحفظ وإمَّا جريان الشيء على اللسان، وذكر الله تعالى جريان اسم من أسمائه أو نعت من نعوته على اللسان، وهذا يستلزم الإخلاص في القول والعمل، فتغرس في العبد فضيلة ذكر الله تعالى وتقديسه وتزنيه فتثبت محبته في القلب ويحلو إلى نفسه القيام بأوامره والبعد عن نواهيه"⁽¹⁶⁾ وهو لا يقتصر على هذا فقط، بل يتعداه إلى مفاهيم أشمل مثل تجلياته في مختلف الآداب والسلوكات. وقد وضع الشيخ "عبد الحفيظ الحنقي" منهاجًا خاصًا للذكر كان مناسبًا لتكوين المريد على الطريقة التي تهذب النفس والعقل، وهو في هذا الموقف لا يخرج عن إطار الكتاب والسنة النبوية الشريفة. فالمريد لا يصل إلى مقام الرضا والتربية دون أن يملأ الذكر قلبه ولسانه، فالذكر له مراتب مختلفة حسب استعداد الذاكر لها، فهناك ذكر العوام وذكر الخواص، هذا الأخير الذي يكون بالرياضة والاجتهاد والعزوف عن هوى النفس والإقبال على الطاعات ويصبح كأنه وجه الشريعة على الأرض مؤتمرا بأوامرها وممتيا بنواهيها "حتى إذا حصل له هذا الوصف المحمود المتوسط فاضت عليه المواهب الربانية وأطرقته واردات الحقائق الإلهية في قلبه وأتته في آخر اجتهاده أسرار تقرر بها عينه وتصلح بها أسرارها وتعبها بها إلى حضرة الله فينسى حضرة نفسه، فحينئذ يشاهد من عجائب الله ما يبهر عقله ويصلح خلقه وينعش روحه"⁽¹⁷⁾ ولو اجتهد كل إنسان في وضع منهج خاص للذكر يلتزم به؛ لتهذبت نفسه وتجردت عن الهوى واستقام حالها وحال من حولها.

5.3- الذكر والتوحيد:

إنَّ اجتهاد الذاكر في الذكر والسعي إلى الإخلاص فيما يقوم به في مختلف الحركات والسكنات يخلص به إلى مقام التوحيد، وهو ينقسم إلى توحيد العوام والخواص والأخص، وسبيل حصول هذا هو تحصيل الذكر في الباطن قبل الظاهر "فعند حصول المعنى في الباطن يحصل له الذكر لأنَّ عندهم العبرة بالمقاصد لا بالوسائل، وهذا أول تعليم الذاكر نفسه في لا إله إلا الله ولا بدَّ للذاكر المبتدي أن يعلم نفسه الذكر أولاً ثمَّ يعلم نفسه الآداب.. ويعلم نفسه أدب الخدمة في ذكره بأداء المفروضات والمسنونات والمستحبات والمندوبات ما أمكنه ويعلم نفسه الصوم والسهرة والقيام والإعتزال عن الخلق بحسب إمكانه"⁽¹⁸⁾ وجملة هذه الرياضات والمجاهدات مطهرة للعقل والروح لأنَّ الأدب هو أساس التصفوف فبه يرتقي المريد في المقامات وتتكشف له الحجب، وجملة ما يركز عليه المريد هو ذكر كلمة التوحيد "لا إله إلا الله" فهي أساس العقيدة السليمة.

تتعدد معاني التوحيد في الوضع الصوفي "هو أن تعلم أنَّ قدرة الله تعالى في الأشياء بلا مزاج، وصنعه لأشياء بلا علاج، وعلة كلَّ شيء صنعه ولا علة لصنعه وليس في السموات العلى ولا في الأرضين السفلى مدبر غير الله تعالى"⁽¹⁹⁾، ومادام الإنسان موقنا بأحدية مولاه، فإنه يظل يرتقي في مقامات العرفان، ومن هذه المقامات هي الولاية"⁽²⁰⁾ وعلامة الولاية الإكثار من ذكر لا إله إلا الله والاستمرار فيها في كلَّ حال سرا وجهرا ولا بدَّ لذاكرها من شيخ كامل عارف بالأحوال في السير والسلوك، ولا بدَّ من آداب وشروط يستعملها الذاكر إنَّ يعلم نفسه بذلك"⁽²¹⁾ حتى يحصل له المراد في تحقيق قوة الصلة بينه وبين ربه. كما "يرتكز الذكر في الطريقة الرحمانية على التعوذ من الشيطان الرجيم والتشهد وقراءة الفاتحة وبعض الأدعية، ويطلب من المريد أن يذكر الله كثيرا أثناء الليل وأطراف النهار"⁽²²⁾. وقد كانت مقامات الذكر والتوحيد هي محاد عرفاني لكلَّ مريد، فيه تُصان العقيدة من الزيغ والبدع وبه يتحقق معنى عبودية السالك لربه، لأنه يعرف ويدرك حقيقة ذاته المتناهية في الصغر أمام خالقها. وفي ذكر "لا إله إلا الله" يطرق الذاكر اسم الله الأعظم الذي جعله مستترا عن الخلق إلا من أذن له، واستمرار الذاكر في ذكر كلمة التوحيد بجواسه ووجدانه يخرج من وضعه البشري إلى الوضع المتعالي ويحقق بلوغه أرقى المقامات، وهي التي سماها الشيخ "الحنقي" المقامات القهرية وهي التي تمده بالأسرار، وورد في قول الشيخ ما يدل على ذلك كقوله: "فيصير مقامه قهريًا فيقهر كلَّ من يراه بدعة ويهرب منه، فيتلك القهرية تمتد له الإمدادات ويلحق بالمقام القسط الذي يبرز منه للمريدين على يديه التزكية والتخليّة، والسير والسلوك، فتصير حركاته نتائج وسكناته مفارج وأنفاسه مخارج أي شهب تحترق بها الشياطين في الهوى، والخطوط والأنفاس والهواجس، فيصير إماما لكلَّ الخلق كافة، فمن أمه سار في الطريق ونجا، ومن خالفه دجا في تيه ظلامه"⁽²³⁾ فهذه من عظيم التمسك بذكر كلمة التوحيد ونسخير النفس والحواس لها، وهو مبلغ عظيم في تربية النفس.

6.3- الخلوة شروطها وفضائلها:

يغلب على حياة الإنسان المتصوِّف خلق التدبّر والتفكير في خلق الله ونعمه، وهذا لا يتأتَّى إلا بالخلوة التي تحقق حالة من الراحة النفسية وصفاء الذهن، والخلوة لا تكون إلا بشروط" وإنَّ أراد الذاكر دخول الخلوة فليستأذن شيخه ولا يدخل الخلوة برأيه من نفسه فإن دخلها من تلقاء نفسه فتكون عليه خلوته فتنة وتشويشا ولا يحصل منها سوى التعب والجوع ويخرج منها مفتونا مشوش الخاطر، وربما ازداد عليه الخاطر أكثر مما كان عليه في غير الخلوة. ولذلك حرصوا على أنَّ خلوة السالك لا تكون إلا من نظر شيخ مرب عارف بالطريق"⁽²⁴⁾ وهذه الشروط هي سند رجال الطريقة الرحمانية منذ أن سنَّ شيخها ومؤسسها "عبد الرحمن الباشتراري" ذلك فقد ورد في منظومته:

وحبس النفس عن الهوى

عسى يفتح مولاي

بحضرة ذا الغيوب

لمن له العناية

مصقلة للقلوب

تحظى عنها بالخلوة

في العزلة التوفيقية⁽²⁵⁾

إذا تريد الدّوا

كَلْ نفسك بالخلوى

هي وصلة القلوب

علمه فيها موهوب

ممحية للذنوب

وإن تريد الخلوة

لازم ذكرك بالقوة

فهذه المنظومة يبدو فيها استعمالاً للغة العامية دون الفصحى، وربما كان هذا بسبب الميل إلى تبسيط المعنى وإيصاله إلى ذهن السامع، ورغم ذلك فقد اتضح أنّ الخلوة هي سلوك الأنبياء والصالحين من بعدهم، وفضلها كانت الرسائل والكرامات، لأنّها مطهّرة للنفس إذا تمسك المريد بشروطها. والخلوة في الطريقة الرحمانية تقدّم أنموذجاً لتربية الإنسان وتهذيب نفسه، وما احترام المريد واتباعه إلّا دليلاً على السعي إلى تحصيل التربية "صلحت التربية بانفراد المريّ ولو كان اثنين لفسدت التربية وعدم الحكم بينهما لأنّ الرّأي مختلف، وإن اختلف الحكم فسدت السّلطة، وبشهاد لذلك قوله تعالى ﴿لَوْ كَانَ فِيهَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾⁽²⁶⁾ أي لو كان فيها تربية غير تربية هؤلاء لفسد الملك ومن عليه ولما كانت وحدانية الله تعالى منفردة بذاته"⁽²⁷⁾ والخلوة إضافة إلى أنّها طريق للتّقرّب إلى الله إلّا أنّها تعدّ أوّل الرّياضات والمجاهدات التي يتبعها المريد للوصول إلى مقاما أعلى، لذلك نجد المتصوّفة يولون لها أهميّة كبيرة ويوصون بأنواع الذكر التي تقال فيها. والشّيخ "الحنفي" بجرّسه على الخلوة كنهج في التربية يكون قد احتذى طريق المتصوّفين من قبله، مثل "أبي حامد الغزالي" و"ابن عربي" و"الحلاج" وغيرهم.

7.3- الحبّ الإلهي:

وردت في معاجم المتصوّفة تعريفات كثيرة للحبّ الإلهي "أهل الحبيّة على ثلاثة أحوال، فالحال الأوّل من المحبّة محبّة العامّة يتولّد ذلك من محبّة الله تعالى إليهم وعظمتهم عليه، وقد روى النبي صلى الله عليه وسلم قال: (جُبِلَت القلوب على حبّ من أحسن إليها وبغض من أساء إليها)، وهذا الحال من المحبّة ما سئل عنه سمنون الحب عن المحبّة فقال: صفاء الودّ مع دوام الذّكر، لأنّ من أحبّ شيئاً أكثر من ذكره"⁽²⁸⁾ ولأنّ قلوب المحبّين متعلّقة بمحبوبها فإنّ كلّ ما ترجوه حو رضاه وقرّبه، لذلك نجد أكثر المتصوّفة يشدّدون الرضا والوصل حتّى تتحدّ ذواتهم في ذاته "سئل أبو سعيد الخراساني رحمه الله، عن المحبّة فقال: طوبى لمن شرب كأساً من محبّته وذاق نعيماً من مناجاة الجليل وقرّبه بما وجد من اللذات بجنبه فملاً قلبه حبّاً وطار به طرباً، وهام إليه اشتياقاً، فيأله من وامق أسف برّته كلف دنف، ليس له سكن غيره ولا مألوف سواه"⁽²⁹⁾ ويمثل الحب الإلهي أحد أهمّ المواضيع التي تعبّر عن العلاقة بين المحبّ والمحبوب، ولاطالما كان المحبوب الملهم للمتصوّفة وقد كانت ذات علاقة بالغزل "فالشاعر الصوفي يتخذ الغزليّات رمزاً حين يريد المحبوب، والمحريّات رمزاً للتعبير عن نشوة الحب، كما أنّ هناك مشتركات أسلوبية بين الشعر الصوفي والشعر الرّمزي، ومنها اللمحة الرّمزية"⁽³⁰⁾ وتبقى طريقة تناول هذه الأغراض مختلفة، فهناك علاقة المحبّة والشّوق إلى المحبوب، وعلاقة المحبّ وابتلاء المحبوب، وعلاقة ترتبط بالمقام الذي يريد أن يصله الصوفي، فحال الوصول إلى هذه المقامات والأحوال تتطلّب معجاً خاصاً يسري بعضه مسرى اللّغة العادية، ويكون الآخر على نحو اللّغة المجازيّة الرّمزية التي تتطلّب التفسير والتأويل.

لقد أورد الشّيخ "الحنفي" باباً خاصاً أورد فيه شعر الحبّ وأشعار بعض المحبّين كدليل على أنّ الصوفي لا يمكنه أن يتخلّى عن مطلب الحبّ الإلهي بوصفه مطلباً من مطالب التّصوّف يتخذ فيه العبد أسلوباً مجازياً تكون فيه الإستعارة والمجاز والحمرة العناصر الرّئيسة في هذا الموضوع، وهو يقول في هذا الصّدد "وهي إشعارات تُعرف بالتلوّج والإيماء ويعرفها من كان داخلاً في الحضرة الإلهيّة وغائباً فيها عن إحساس نفسه، هائماً في هيبه عظمتها، مسلوب الاختيار ومغلوي الاقتدار، واعى الأسرار بعدما كان لا يعرف حقّها من باطلها موافقاً للأمر والنهي معدوم التّديّر"⁽³¹⁾ فالمعبر عن الحبّ باستعارة رمز الحمرة والمرأة هو غائب عن عالم الحسّ بجواسه، حاضر في عالم الغيب بروحه ووجدانه، لذلك تضيق لغته وتعتمد على الإشارة والتلوّج والإيماء، وورد في بعض شعره:

يا ساقِي الحُبِّ زِدْنِي مِنْهُ شَرِبَةً	وَرُجِّي بِي بَحْرَ الشَّرَابِ مَرَارَاتٍ
وَحَمْرَ طِينَتِهِ حُبِّي بِمَاءِ حُبِّكَ	حَتَّى لَمْ أَرَى لِحُبِّي فِي حُبِّكَ لَحَظَاتٍ
وَالْبُسْنِي تَوْبَ الْمُنْشَاهِدَةِ لَعَلَّهُ	يَجْزِينِي بِإِنْحَافِ الْكَرَامَاتِ
فَجَاهُكَ يَا رَبِّ لِعَبْدِكَ وَاسِعٌ	وَلَطْفُكَ يَا كَرِيمٍ لِصَاحِبِ الْحَبَايَاتِ
فَلَدُّ لَنَا الْمَشْرُوبَ وَقَلَّ شَارِبُهُ	فَمَا عَذَبَ الشَّرَابُ لِأَهْلِ الْمُنَاجَاةِ ⁽³²⁾

الشَّيْخ "الحنفي" اختار هذه الأبيات التي يعبر فيها عن حالة من حالات الفناء والحب الذي تمحي فيه كل خواطر الحب عن الحب إلا خاطر محبوبه عز وجل. وتعبيرا عن رمز الحرة والسكر نجده يختار من الشعر ما يليق بذوق الحب المجد في محبته حين يقول:

فَشَرِبَ الْقَوْمُ مِنْهُ كَأْسَ مَجْدٍ حَتَّى سَكِرُوا وَلَمْ يَذَرُوا فِي شُرْبِهِمْ مَا السَّكَرَاتُ
حَتَّى إِذَا قَافُوا صَاحُوا نَادُوا بِأَجْمَعِهِمْ يَا صَاحِبَ الْكَاسِ اشْرَبْ وَلَا مَبَالَةَ
نَجَّ عَنْ مَا كُنْتَ عَنْهُ بِكَاسٍ شَرَابِكَ وَكُنْ غَضِيضَ الطَّرْفِ عَنِ الْعَثَرَاتِ
تَحْطَى بِقُرْبِ رَبِّكَ خَطُورًا دَائِمًا وَتَبْقَى مَعَهُ حَقًّا فِي الْمَحْيَا وَبَعْدَ الْمَمَاتِ⁽³³⁾

والحمر في الشعر الصوفي يتجاوز وضعه اللغوي الذي يساق من أجله، إلى وضع في المصطلح الصوفي يرمز إلى غياب العقل وفناء الحب في محبوبه. فقد اصطلح الصوفيون لأنفسهم مسارا يعرج بلغة التداول نفسها وفي آفاقها عروجا لكنه يعتمد جناحين هما: مرجعية الأصول ومردودية التجربة، فهم يتلاقون في الجناح الأول الوقوع في الإغراب، وهم يتحاشون في الجناح الثاني السقوط في الإلباس، ولا شك أن هذين الجناحين تلازما وتفاعلا حيث إن عروج السلوك الصوفي لابد أن يصحبه عروج المفهوم من اللغة تبعاً لتغير نظره وفهمه لجميع الأشياء "وهو قانون عام لكل التجارب الإنسانية"⁽³⁴⁾ وعبر ما تميزه اللغة من رمز يكون الخطاب الصوفي قد فتح لنفسه آفاقاً تنصهر فيها قواعده ومضامينه التي يرمي الكشف عنها، وفي المقاطع الشعرية السابقة لاحظنا كيف تجلّت حضرة الحب الإلهي والفناء والاتحاد.

الهوامش:

- (1) أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية في الجزائر 1830-1900-دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1992، ج1، ص 298، 299.
- (2) مختار حبار: الحضور الصوفي في الجزائر في العهد العثماني، موقع برج ابن عزوز.
- (3) مؤيد صلاح العقي: الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر- تاريخها ونشاطها- دار البراق، بيروت، لبنان، (د.ط)، 2002، ج1، ص 158.
- (4) ينظر: عبد المنعم القاسمي الحسني: أعلام التصوف في الجزائر- منذ البدايات إلى غاية الحرب العالمية الأولى دراسة إحصائية تحليلية- دار الخليل القاسمي، الجزائر، ط1، 1427هـ، ص 180، 181.
- (5) عبد الحفيظ بن خنفي الشريف: المجموع الفائق والدستور الرايق المسمى بالجواهر المكنونة والعلوم المصونة المشغل على تأليف جامعة لشتات الآداب واللطائف منهجرة بعين المعارف والعارف في علوم الحقيقة والسلوك، المطبعة الرسمية التونسية، تونس، ط1، 1315هـ، ص 276.
- (6) المصدر نفسه، ص 310.
- (7) المنهج الفائق والدستور الرايق، ص 12.
- (8) المصدر نفسه، ص 13.
- (9) المنهج الفائق والدستور الرايق، ص 29.
- (10) عبد الحليم محمود: قضية التصوف المنقذ من الضلال، مصر، القاهرة دار المعارف (د.ط.ت.ش) ص 48.
- (11) المنهج الفائق والدستور الرايق، ص 80.
- (12) المصدر نفسه، ص 81.
- (13) المصدر نفسه، ص 286.
- (14) سورة آل عمران، الآية: 41.
- (15) سورة الأعراف، الآية: 205.
- (16) محمود سامي بك: المواهب السنية في الوصول إلى المقامات الإحسانية، مطبعة مصر، مصر، ط1، 1370هـ- 1951م، ص 133.
- (17) المنهج الفائق والدستور الرايق، ص 4.
- (18) المصدر نفسه، ص 3.
- (19) رفيق العجم: موسوعة مصطلحات التصوف، ناشرون، بيروت، لبنان، ط1، 1977، ص 223.
- (20) يفتح الواو: فهي في حقيقة اللغة بمعنى التصرة والولاية بكسر الواو فهي الأمانة، وكلاهما مصدر "ولي" من شرط الولاية كتمان الكرامات، وإظهار المعجزات، ليقع بذلك الفرق بين النبوة والولاية، وهي أيضاً أن يتولى الله الواصل إلى حضرة قدسه بكثير من تولى النبي من حفظ وتوفيق وتمكين واستخلاص وتصريف، فالولي يساوي النبي في أمور منها العلم من غير طريق العلم الكسبي والفعل بمجرد الهمة/ ينظر: المصدر نفسه، ص 1051، 1052.
- (21) عبد الحفيظ الحنفي الشريف: المجموع الفائق والدستور الرايق، ص 5.
- (22) ينظر: أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، دار البصائر، الجزائر، (د.ط.ت.ش) ج1 (1830-1500)، ص 508.
- (23) عبد الحفيظ الحنفي الشريف: المجموع الفائق والدستور الرايق، ص 213.
- (24) المصدر السابق، ص 5.
- (25) عبد الرحمن باش تارزي: المنظومة الترحيية في الأسباب الشرعية المتعلقة بالطريقة الخلوتية، وقف على تصحيحها: العلامة الأوحّد، عبد الحميد بن باديس، المكتبة الفلسفية الصوفية، الجزائر، ط1، 1435هـ- 2014م، ص 29.
- (26) سورة الأنبياء، الآية 22..
- (27) المجموع الفائق والدستور الرايق ص 8.
- (28) أبو نصر السراج الطوسي: اللع، حققه وقدم له وخرّج أحاديثه: عبد الحليم محمود، طه عبد الباقي سرور، دار الكتاب الحديثة، مصر، مكتبة المديني ببغداد (د.ط) 1380هـ- 1960م، ص 86.
- (29) المصدر نفسه، ص 87.
- (30) محمد عبد الخطيب: نظرات في الشعر الصوفي العربي، موقع طواسين. Tawasen.com.

(31) عبد الحفيظ الخنفي: المجموع الفائق والدستور الراقى، ص 267.

(32) المصدر نفسه، ص 278.

(33) المجموع الفائق والدستور الراقى، ص 268.

(34) محمد مصطفى عزام: الخطاب الصوفي بين التأويل والتأويل، مؤسسة الرحاب الحديثة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2010، ص 193، 192.

مكتبة البحث:

القرآن الكريم برواية ورش عن الإمام نافع.

* الكتب:

- 1- (باش تارزي) عبد الرحمن: المنظومة الزجرانية في الأسباب الشرعية المتعلقة بالطريقة الخلوتية، وقف على تصحيحها: العلامة الأوحى، عبد الحميد بن باديس، المكتبة الفلسفية الصوفية، الجزائر، ط1، 1435هـ-2014م.
 - 2- (ابن الخنفي الشريف) عبد الحفيظ: المجموع الفائق والدستور الراقى المسمى بالجواهر المكنونة والعلوم المصونة المشتغل على تأليف جامعة لشتات الآداب واللطائف منممة بعين المعارف والعوارف في علوم الحقيقة والسلوك، المطبعة الرسمية التونسية، تونس، ط1، 1315هـ.
 - 3- (سعد الله) أبو القاسم: الحركة الوطنية في الجزائر 1830-1900 دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1992، ج1.
 - 4- تاريخ الجزائر الثقافي، دار البصائر، الجزائر، (د.ط.ت.ش) ج1 (1830-1500).
 - 5- (العجم) رفيق: موسوعة مصطلحات التصوف، ناشرون، بيروت، لبنان، ط1، 1977.
 - 6- (سامي بك) محمود: المواهب السنية في الوصول إلى المقامات الإحسانية، مطبعة مصر، ط1، 1370هـ-1951م.
 - 7- (عزام) محمد مصطفى: الخطاب الصوفي بين التأويل والتأويل، مؤسسة الرحاب الحديثة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2010.
 - 8- (العقبي) مؤيد صلاح: الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر- تاريخها ونشاطها- دار البراق، بيروت، لبنان، (د.ط) 2002، ج1.
 - 9- (الطوسي) أبو نصر السراج: اللمع، حققه وقدم له وخرّج أحاديثه: عبد الحليم محمود، طه عبد الباقي سرور، دار الكتاب الحديثة، مصر، مكتبة المدني ببغداد (د.ط) 1380هـ-1960م.
 - 10- (القاسمي الحسني) عبد المنعم: أعلام التصوف في الجزائر- منذ البدايات إلى غاية الحرب العالمية الأولى دراسة إحصائية تحليلية- دار الخليل القاسمي، الجزائر، ط1، 1427هـ.
 - 11- (محمود) عبد الحليم: قضية التصوف المنقذ من الضلال، مصر، القاهرة دار المعارف (د.ط.ت.ش).
- * المواقع الإلكترونية:
- 12- (حبار) مختار: الحضور الصوفي في الجزائر في العهد العثماني، موقع برج ابن عزوز.
 - 13- (عبد الخطيب) محمد: نظرات في الشعر الصوفي العربي، موقع طواسين. Tawasen.com